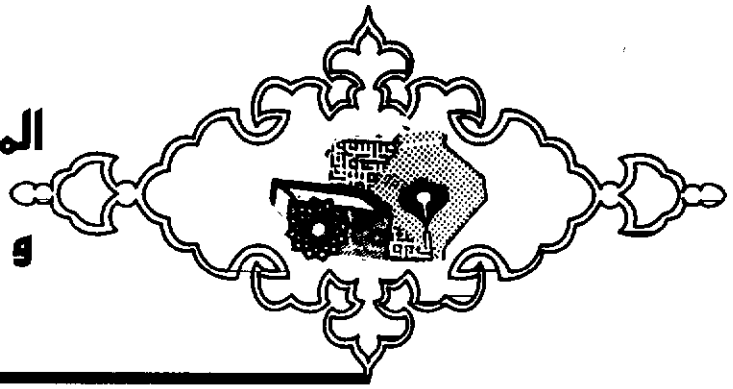

المعركة التاريخية بين الاستكبار و الاستضعاف فى القرآن الكريم

القسم الاول

رضيه طهمازى ـ مدرّس

المقدمة :

« هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عما يشركون».[1]

إنّ القرآن الكريم هو الرسالة السماويه المنزلة من الله لعباده، و المنهج الذى أقره الله سبحانه لسعادة عباده فى الدارين،... ففيه الاحكام و فيه المواعظ و العبر و الحكم، و فيه كل شيء تذكرة، و فى آيات الموعظه، يطلب الله سبحانه من عباد الاعتبار بالامم الماضيه و الاتعاظ بأحوالهم، ليعلموا ان الله سبحانه و تعالى لا تعجزه قوة الاقوياء و استكبار المستكبرين و مكر الماكرين... .

«أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشدّمنهم قوة و آثاراً فى الارض فأخذهم الله بذنوبهم...».[2]

مما لا يختلف فيه اثنان أن الله قد جعل الخلافة فى مخلوقه «و اذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل فى الارض خليفه...»[3]، ولكن «مفهوم الخلافة فى الاسلام هو أن الله سبحانه و تعالى أناب الجماعة البشرية فى الحكم و قيادة الكون و اعماره اجتماعيا و طبيعياً، و على هذا الاساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم و شرعية ممارسة الجماعة نفسها بوصفها خليفة عن الله.

إنّ هذه الجماعة البشريه تدور حول محور واحد و هو المستخلف، أى الله سبحانه و تعالى الذى استخلفها على الارض بدلاً عن كل الانتماءات الاخرى، و الايمان بسيّد واحد و مالك واحد للكون و كل ما فيه، و هذا هو التوحيد الخالص الذى قام على أساس الاسلام، و حملت لواءه كل ثورات الانبياء تحت شعار: «لا اله الا الله» «صبغة الله و من أحسن من الله صبغة و نحن له عابدون».[4]

إنّ العلاقات الاجتماعية يجب أن تقوم على أساس العبودية المخلصة لله و تحرير الانسان من عبودية الاسماء التى تمثل ألوان الاستغلال و الجهل و الطاغوت «وما تعبدون من دونه الا أسماء سمّيتموها...».[5]

إنّ روح الاخوة العامة تتجسد فى كل العلاقات الاجتماعيه بعد محو ألوان الاستغلال و التسلط، فما دام الله سبحانه و تعالى واحداً، و لاسيادة الاّ له، و الناس جميعاً عباده و متساوون بالنسبة اليه، فمن الطبيعى أن يكونوا اخوة متكافئين فى الكرامة الانسانية و الحقوق كأسنان المشط، على ما عبّر الرسول الاعظم﴿ﷺ﴾، و لا تفاضل و لا تمييز فى الحقوق الانسانيه و لا يقوم التفاضل على مقاييس الكرامة عندالله إلاّ على اساس العمل الصالح تقوىً او علماً او اجتهاداً «و أنْ ليس للانسان إلاّ ما سعى».[6]

إنّ هذه الجماعة البشرية ملزمة بتطبيق الحق و العدل و رفض الظلم والطغيان، و ليست مخيّرة بين هذا و ذاك، حتى ان القرآن الكريم يسمّي الجماعة التى تقبل بالظلم و تستسيغ السكون عن

---

۱) الحشر، ۲۳

۲) غافر، ۲۱

۳) البقره، ۳۰

۴) البقره، ۱۳۸

۵) يوسف، ۴۰

۶) النجم، ۳۹

الطغيان بأنّها ظالمة لنفسها و يعتبرها مسؤولة عن هذا الظلم و مطالبة برفضه بأي شكل من الاشكال ولو بالهجرة و الانفصال اذا تعذّر التغيير.[1] قال سبحانه و تعالى «ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم و ساءت مصيرا».[2]

«و اذ قلت للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس أبى و استكبر و كان من الكافرين».[3]

و قبل أن ندخل فى تفاصيل الموضوع، علينا أن نبحث فى معنى كلمتي: الاستكبار و الاستضعاف، من خلال القرآن الكريم «التفاسير» و الحديث «الروايات»...

أما ما جاء فى التفاسير لمعانى الاستكبار، فهو مايلي:

الاستكبار: «طلب الترفّع بترك الاذعان للحق».[4]

«فالمستكبر: هو الذى يطلب الكبر لنفسه باخراجه من القوة الى الفعل و اظهاره لغيره،... و المتكبر: هو الذى يقبله لنفسه و يأخذه صفة له».[5]

أبى و استكبر: «امتنع عمّا أُمر به من السجود، و أظهر كبره و ترفّع عن الحق»[6]

و استكبروا استكباراً: «أى استنكفوا عن اتباع الحق و الانقياد له».[7]

«الكبير: العظيم الشأن الذى كل شيء دونه حقير

المتعال: المستعلي على كل شيء بعظمته».[8]

«المتكبرون فى الارض: هم الذين يعاندون الحق، و لا يخضعون لسلطانه».[9]

أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو: ترك الطاعة لمن أمروا بطاعته و الترفّع على من ندبوا الى متابعة[10] «أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم؟ أي أبلغ الامر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذى تهوى نفوسكم استكبرتم عليه تجبراً و بغياً فى الارض؟... ففريقاً كذبتم... أى فبعضاً منهم تكذبون كعيسى و محمد عليهما السلام، و بعضاً تقتلون كزكريا و يحى عليهما السلام، فلا عجب بعد هذا ان لم تؤمنوا بدعوة محمد﴿صلى الله عليه و آله﴾ فان العناد و الجحود من طبعكم، و سجية عرفت عنكم، ولا غرابة فى صدور ما صدر منكم».[11]

الاستكبار من خلال الحديث:

«... العياشي عن الامام الصادق﴿عليه السلام﴾ مثله و القمي عنه﴿عليه السلام﴾، الاستكبار: هو أول معصية عصي الله بها. قال عليه السلام: فقال ابليس، رب اعفني السجود لآدم و انا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبي مرسل، فقال جلّ جلاله: لاحاجة لي في عبادتك و انما عبادتى من حيث أريد لامن حيث تريد».[12]

أول معركة تاريخية فى القرآن الكريم، و ظهور أول مستكبر من خلق‌الله تعالى، «فى العالم العلوي»:

و اذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى و أستكبرو كان من الكافرين.

«نجد فى المشهد» مشهد ميلاد الانسان ـ خلقه الاول ـ ثلاثة نماذج من خلق الله:

۱ـ نموذج الطاعة المطلقه والتسليم العميق: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا»

۲ـ نموذج العصيان المطلق و الاستكبار المقيت «... إلاّ ابليس أبى و استكبر...».

۳ـ طبيعه ثالثه هى طبيعه البشريه، و هذه لها خصائصها و صفاتها المزدوجة.

فأما الطبيعة الاولى فهي خالصة لله، و قد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. و اما الطبيعتان الاخريان، فستعرف كيف تتجهان.

أن ابليس ـ لعنه‌الله ـ لم يكن ينقصه أن يعلم ان الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذى لايقع فى هذا الوجود شيء الا باذنه و قدره... ولكنه لم يطع الامر كما صدر اليه و لم ينفذ، بمنظور من عند نفسه: «قال انا خير منه خلقتنى من نار و خلقته من طين»[13] فكان الجزاء العاجل الذى تلقاه لتوه: «قال فاهبط منها فما يكون

---

۱) خلافة الانسان و شهادة الانبياء، الشهيد آيةالله العظمى السيد محمد باقر الصدر (ره)، ص ۱۲۸

۲) النساء، ۹۷

۳) البقره، ۳۴

۴) تفسير الميزان، العلامة الطباطبايى (ره) ج۱۲، ص ۲۲۸

۵) نفس المصدر السابق، ج ۱۲، ص ۲۳۴

۶) تفسير المراغي ـ أحمد مصطفى المراغي، ج۱، ص ۸۸

۷) تفسير القرآن‌العظيم، ابوالفداء، ج ۴، ص ۳۷۱

۸) تفسير الصافى، ج ۱، ص ۸۶۵

۹) تفسير الكاشف ـ محمد جواد مغنيه، ج ۹، ص ۳۹۴

۱۰) تفسير الصافى، الفيض الكاشانى

۱۱) تفسير المراغي، ج ۱، ص ۱۶۶

۱۲ تفسير الصافى ـ الفيض الكاشانى: ج ۱ ص۷۸

۱۳)اعراف، ۱۲

لک أن تتكبر فيها فاخرج انک من الصاغرين».[١]

انّ علمه بالله لم ينفعه، و اعتقاده بوجوده و صفاته لم ينفعه... و كذلک كل من يتلق أمرالله؛ ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الامر يترتب عليه قبوله أو رفضه... و في قضية قضى الله فيها من قبل يردّ بها قضاء الله في هذه القضية... انه الكفر اذن مع العلم و مع الاعتقاد. فابليس لم يكن ينقصه العلم، و لم يكن ينقصه الاعتقاد!... لقد طُرد من الجنه، و طُرد من رحمةالله، وحقّت عليه اللعنه، وكُتب عليه الصغار ـ الذلّ ـ[٢]

الحقائق المستلهمة من قصة النشأة الانسانية و نشوء ولادة الاستكبار:

لمعرفة طبيعةالكائنالانسانيو علاقته و ارتباطه بطبيعة الكون، و دوره فيه، و كذلک معرفة سبب نشوء و ولادة الاستكبار في الذات الانسانية و الغاية المبتغاة منها، لنوضح ذلک، نذكر الحقائق التالية:

١ـ التوافق بين طبيعة الكون و نشأة الكائن الانساني. و التقدير الالهي المحيط بالكون و الانسان، و الذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لافلتة عارضة، كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة.

٢ـ كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، و ضخامة دوره المنوط به، وسعة الافاق و المجالات التي يتحرک فيها، و تنوع العوالم التي يتعامل معها ـ في حدود عبوديته لله وحده ـ عما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون.

و كذلک تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئه له، فان عمارة كوكب و سيادته بخلافة الله فيه ـ أياً كان حجم هذا الكواكب ـ انها لامر عظيم!

٣ـ ان هذا الكائن ـ بكل تفرده ـ ضعيف في بعض جوانب تكوينه، حتى ليمكن قيادته الى الشر و الارتكاس الى الدرك الاسفل، من خطام شهواته، و في أولها ضعفه تجاه حب البقاء، وضعفه تجاه حب الملك... و هو يكون في أشد حالات ضعفه حين يبعد عن هدى الله، و يستسلم لهواه، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه اغوائه، في جهد ناصب، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل!

٤ـ جديّة المعركه مع الشيطان و أصالتها، و استمرارها و ضراوتها...

و هو ـ الشيطان ـ انما يأتيهم من ناحية نقاط الضعف فيهم و مداخل الشهوة. ولا عاصم لهم منه الا بالتقوى، بالايمان و الذكر، التقوى على اغوائه و وسوسته، و الاستعلاء على الشهوات و اخضاع الهوى لهدى الله.[٣]

المعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسيه:

«... لاقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينّهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم».[٤]

«إنّهاالمعركة مع الهوى باتباع الهدى... و المعركة مع الشهوات باستعلاء الارادة، و المعركة مع الشر و الفساد في الارض، الذي يقود الشيطان اوليائه اليه، باتباع شريعة الله المصلحة للارض بعد المعركة في الضمير، و المعركة في الحياة الواقعيه متصلتان لا منفصلتان، فالشيطان وراء هما جميعاً!

«... انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون».[٥]

و الطواغيت التي تقوم في الارض لتخضع الناس لحاكميتها و شرعها وقيمها و موازينها، و تستبعد حاكمية الله وشرعه و القيم و الموازين المنبثقه من دينه.... أنما هي شياطين الانس التي توحي لها شياطين الجن. و المعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه وليست بعيده عنها.

«إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله و يحسبون انهم مهتدون».[٦]

و هكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته، و مع أوليائه. و يشعر المسلم و هو يخوض المعركة مع هواه و شهواته؛ و هو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الارض و أتباعهم و أذنابهم؛ و هو يخوضها مع الشر و الفساد و الانحلال الذي ينشئونه في الارض من حولهم. يشعر المسلم و هو يخوض هذه المعارک كلها، انّه انّما يخوض معركه واحده جدية صارمة ضارية، لان عدوّه فيها مصرّ ماض في طريقه و ان الجهاد ـ من ثم ـ ماضٍ الى يوم القيامة، في كل صوره و مجالاته»[٧]

---

١) اعراف، ١٣

٢) تفسير في ظلال القرآن- السيد قطب -ج ٨، ص ٤٧٧

٣) تفسير: في ظلال القرآن - للسيد قطب، ج ٨، ص ٤٨٤

٤) الاعراف، ١٦-١٧

٥) الاعراف، ٢٧

٦) الاعراف، ٣٠

٧) في ضلال القرآن- ج ٨، ص ٤٨٤

ظهوره جبهة الخير و جبهة الشر:

ولقد سجد الملائكة امتثالاً بالامر العلوى الجليل، «الا ابليس ابى و استكبر و كان من الكافرين».[۱]

و هنا تتبدى خليفة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! و الاستكبار عن معرفة الفضل لاهله. و العزة بالاثم، و الاستغلاق عن الفهم.

و الان قد انكشف ميدان المعركه- الخالده، المعركه بين خليفة الشر فى ابليس، و خليفة الله فى الارض، المعركة الخالده فى ضمير الانسان المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الانسان بارادته و عهده مع ربه، و ينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الانسان لشهوته و يبعد عن ربه:

فالارادة هى مفرق الطريق، و الذين يستمتعون بلا ارادة هم من عالم البهيمه و يا للتجير المصور: "أزلّهما"... انه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها، و انك لتكاد تلمح الشيطان و هو يزحزحهما عن الجنه، و يدفع باقدامهما فتزل و تهوى!... .

عندئذ تمت التجربه: نسى آدم عهده، وضعف أمام الغواية. و عندئذ حقت كلمة الله.[۲]

معركة النفس مع الروح:...«ان النفس لامّارة بالسوء الا ما رحم ربى...»[۳]

متى تتولد حالة الاستكبار لدى الانسان ؟

بعد أن أبى الشيطان و استكبر عن السجود لخليفةالله، و بذلك لم يمتثل لامر خالقه، كان جزاؤه أن يصبح طريداً من ساحة القدس الالهيه، و بعيداً عن رحمة خالقه، فأخذ عهداً على نفسه، و تحدّياً لخالقه، أن يكون قاعداً لصراط عباد الله المستقيم، و ذلك لاغوائهم و اخراجهم عنه، بانتقال حالته تلك «الاستكبار» إليهم، إلاّ منهم المخلصين الذين استثناهم الله خالقهم...

«و أما لبسهم على انفسهم- المستكبرين- فهو بتخيلهم الى انفسهم أن الحق باطل و أن الباطل حق، ثم تماديهم على الباطل،... فإن الانسان، و إن كان يميز الحق من الباطل «فطرة الله التى فطر الناس عليها...»[۴]، و كان تلهم نفسه فجورها و تقواها «فألهمها فجورها و تقواها»[۵]، و أنّ تقوية جانب الهوى و تأييده روح الشهوة و الغضب من نفسه تولّد فى نفسه ملكة الاستكبار عن الحق، و الاستعلاء على الحقيقه فتنجذب نفسه اليه، و تغترّ بعمله، ولا تدعه يلتفت الى الحق و يسمع دعوته، و عند ذاك يزيّن له عمله، «زين الشيطان له سوء عمله»، و يلبس الحق بالباطل، و هو يعلم كما قال تعالى: «أفرأيت من أتخذ الهه هواه و أضله الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة...».[۶]

و قال تعالى: «قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».[۷]

و تبقى النفس الشيطانيه فى صراع دائم مع الروح الالهيه الطاهرة «و نفخنا فيه من روحنا...»[۸] ... و يكون الطرف الفائز، ذلك الطرف الذى نمّاه و ربّاه صاحبه- الانسان - باختياره و ارادته،... فمتى ما كانت الروح هى الجانب المنتصر، يكون صاحبها: «قد أفلح من زكاها».[۹]

و متى ما تكون النفس الشيطانيه الامارة بالسوء هى الغالبه، يكون صاحبها «وقد خاب من دسّاها».[۱۰]

و من لم يحكّم ارادته، و يتبع الخط الربانى، يبق فى لبس و ضلال و خسران، حيث قال سبحانه و تعالى: «قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».[۱۱]

الاصرار على الضلال، بعلم، نتيجة رسوخ العادات، و عدم التخلّى عنها:

«اننا لو تعمقنا فى أحوالنا أنفسنا، ثم أخذنا بالنصفه، عثرنا على عادات سوء نقضى بسوئها، لكنّا لسنا نتركها، لرسوخ العادة، و ليس ذلك إلاّ من الضلال على علم، و لبس الحق بالباطل على النفس و التلهّى باللذة الخياليه و التولّه اليها عن التثبت على الحق و العمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته».[۱۲]

يتبع فى العدد القادم

---

۱) بقره، ۳۴

۲) تفسير: فى ظلال القرآن- السيد قطب - ج ۱، ص ۶۸

۳) يوسف، ۵۳

۴) الروم، ۳۰

۵) الشمس، ۸

۶) تفسير الميزان، ج ۷، ص ۲۱

۷) الكهف، ۱۰۴

۸) تحريم، ۱۷

۹) الشمس، ۹

۱۰) الشمس، ۱۰

۱۱) الكهف، ۴

۱۲) تفسير الميزان، ج ۷، ص ۱